من ثنايا التاريخ

نهضة المعارف فى مصر (١)

جمال الدين الأفغانى - ٣

بقلم الأستاذ حسنين محمد مخلوف المدرس بالمعلمين بطنطا

تدرج السيد فى بث أفكاره فى مصر من الأدب والعلم إلى السياسة وعنى هو وتلاميذه بالكتابة الصحفية فى نقد الحوادث الجارية وكانت فى مصر لذلك العهد شئون شتى تدعو إلى النقد المر وتنذر بسوء المصير . فانقادت له الطبيعة المستنيرة من الأدباء والأعيان فأسس منهم جمعية (ماسونية) استطاع أن يجمعهم خفية ويفيض فى نقد السياسة المصرية فى عهد إسماعيل باشا وعلاقتها بالدول ويدبر الخطط . وكان وزراء مصر الوطنيون وعظماؤها يأملون أن تتبدل الحال غير الحال وأنه لا نجاة لهذا الوطن إلا بزوال عهد إسماعيل باشا، ولكن من يكون الأسرة الحاكمة معقد الأمل وصخرة النجاة ؟ ذلك هو محمد توفيق بن إسماعيل الذى انضم إلى جماعة الماسون وعول على هذا الحزب القوى حزب جمال الدين فى خلع أبيه وتوسيد الأمر إليه ورأى فيه السيد شابا صالحا تقيا عادى الطبع أخذ على عاتقه فى المستقبل تحقيق مطامع السيد فى الحكومة الشورية وإعزاز سلطة الأمة وأيد ذلك قوله فى بعض أحاديثه: (إنك أيها السيد موضع أملى فى مصر) فنهوض السيد بخلع إسماعيل وساعده من قادة الرأى محمود باشا البارودى الشاعر الفحل وكثير من الوزراء والمفكرين وكانت القدرة الإلهية قد خطت أن توفيقا والبارودى سيكونان أشد الناس نكاية بالسيد الأفغانى ، وأن القلوب تتقلب طوع المصلحة العاجلة - ولذلك سمى القلب قلبا كما يزعم بعض الشعراء - وبعد حين تمخضت الحوادث عن (الحزب الوطنى المصرى) يزعمه جمال الدين ويقوم بسفارة عن الأمة إلى الخديوى إسماعيل يذكر آمالها فى الشئون المختلفة من مالية وسياسية ودستورية ثم تغير الحال وإذا بالمفكرين فى مصر يقوون بعد ضعف ويثورون فى وجوه الوزراء ، والخاصة والعامة يعلمون أن السر فى هذه النار المضطرمة وقد كانت خامدة من زمن بعيد : إنما يعود لهذا الأفغانى وتلاميذه : وقد صارت هذه الحركات نواة الثورة العرابية فيما بعد .

كان ما كان من عزل إسماعيل باشا وإسناد الخديوية لتوفيق فاستبشر الناس خيرا وحمد جمال الدين مغبة السرى والجهاد وانتظر تحقيق الآمال فى تكوين الحكومة الدستورية

---

(١) رقمت المقالة السابقة فى العدد السابق بـ ٣ وصححوها ٢ .

التي كان توفيق باشا يمنيه ويعده بها ولكن ما عتم وكلاء دولتي انجلترا وفرنسا أن استولوا على الخديوي الشاب بعد أن أعياهما إسماعيل بدهائه ومكره وقد كان الصراع بين الدولتين وبينه شديدا : عمل هؤلاء الوكلاء الأبالسة على إبعاد العناصر الوطنية عن الخديوي الجديد وعلموا أن محرك هذه القوة إنما هو جمال الدين فسعوا بينه وبين توفيق باشا بالفساد وأخافوه منه ومن تلاميذه وألقوا في روعه أن الاصلاح الدستوري إنما يحمل في طياته الشر لذات الحكم فمال إلى ركن هؤلاء الواغلين وصمم على رفض المطالب الوطنية وأصدر أمرا بنفي السيد الأفغاني من مصر ، وممن وافق على ذلك من الوزراء البارودي أصدق أصدقاء جمال الدين . وكان السيد بعده أفضل الفضلاء في مصر . فقبض عليه سادس رمضان سنة ١٢٩٦ الموافق ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ في الطريق وهو ذاهب إلى بيته هو وخادمه (أبو تراب) في منتصف الليل على عادته ولم يمكن من الذهاب إلى منزله لآخذ ثيابه . وحمل في الصباح في عجلة مقفلة إلى محطة سكة الحديد ومنها نقل تحت المراقبة الشديدة إلى السويس وأنزل منها إلى باخرة أقلته إلى الهند وصدر بلاغ من الحكومة يقول (إن هذا الرجل رئيس جمعية سرية من الشبان ذوي الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا) ويحذر الناس من الاتصال بهذه الجمعية . وهكذا كوفئ السيد وجزاه الخديوي توفيق جزاء سنمار . ولئن نفى السيد من مصر فقد بقيت تعاليمه تنفخ في روح الأمة المصرية وتوري زندها في النهوض العلمي والاجتماعي والسياسي . قطع السيد المسافة إلى بمباي بملابس لم تكن صالحة للسفر وكان جيبه خاليا من النقود إلا قليلا جدا . قال أديب إسحاق : (ومن مدهشات أحواله الدالة على ثبات جأشه وعفة نفسه أنه لما قبض عليه ، كان سائرا إلى الخطر سير الشجاع إلى الظفر ، وأنه أنزل إلى البحر في السويس منفيا حالي الجيب ، فأتاه فيها يقال السيد النقادي فنصل إيران بذلك النفر ومعه نفر من تجار العجم وقدموا له مقدارا من المال على سبيل الهدية أو القرض الحسن فرده وقال لهم « احفظوا المال فأنتم إليه أحوج . إن الليث لا يعدم فريسة حيثما ذهب » ومنذ سنوات حضرت مجلس بعض الفضلاء وكان بينهم شيخ أحنت الأيام ظهره ، حدث أنه كان عضوا في جمعية المأسون التي أنشأها جمال الدين وقال : إن السيد كان مهيب الطلعة والمسمت بنفيه كنت في الرقازيق فذهبت إلى محطتها لأراه فوجدت الحرس قد أحاطوا به وأنا حد عليم بفقره وأنه لا يبقى من المال باقية فأخرجت كيس نقودي ودسسته في جيبه فأخرجه مغضبا محتدا وقال « خذ كيسك وإلا ألقيته تحت القطار . أنا أخرج من مصر وليس في جيبي إلا ريال واحد والأسد لا يعدم فريسته حيثما ذهب » قال المحدث : وخفت على نفسي أن يراني أحد أعطف عليه وخشيت مغبة المناقشة في ذلك ، فأرجعت كيسي إلى جيبي وتم القطار .

أما مذهبه السياسي فقد قال عنه الأستاذ الإمام « إنه كان يسعى لإنهاض إحدى الدول الإسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شئونها حتى تلحق بالدول القوية فيعود الإسلام شأنه ولا يدين الحنيفي بجهده ويدخل في هذا تمكين دولة بريطانيا في الأقطار الشرقية وتقليص ظلها عن رءوس الطوائف الإسلامية وله في عداوة الإنجليز شئون يطول بيانها » .

ويظهر أن السيد الأفغاني كان لا يعنى دولة إسلامية بعينها وإنما يبذر بذور الخير حيث أتاح (وما على الرسول إلا البلاغ) فقد بث دعوته من قبل في تركيا فضاق به عمال الاستبداد ذرعا ، ثم وفد إلى مصر فوجد مرتعا خصيبا وقوما قد تأصلت فيهم الحمية العربية ولكنها مستورة وهم أقرب إلى السلامة من أولئك الغلاظ القلوب ، فرجا الخير فيهم وأمل نهوض الإسلام على أيديهم ، ولولا رسل الاستعمار لاتقاد له الخديوي توفيق وصارت مصر الزعامة السياسية في العالم الإسلامي منذ خمسين سنة ولكنها الأقدار تجري بحكمها وقد كان أمراء الشرق في الأقطار الإسلامية حربا على السيد فلقي خذلانا في كل مكان . ولقد شعر بمضاضة اليأس ونقض العهود والمواثيق في آخر أيامه .

ذكر الأمير شكيب أرسلان ذلك في كتابه (حاضر العالم الإسلامي) فقال « إنه لقيه بالآستانة سنة ١٨٩٢ وكان من شدة ما يجد من آلام الحال الإسلام تخطر له خواطر نادرة في هذا الموضوع . قال له مرة « قد فسدت أخلاق المسلمين إلى حد أني لا أمل بأن يصلحوا إلا بأن ينشئوا خلقا جديدا وجيلا مستأنفا فهذا لو لم يبق منهم إلا كل من هو دون الثانية عشرة من العمر فعند ذلك يتلقون تربية جديدة تسير بهم في طريق السلامة » وقال له مرة أخرى « إن المسلمين قد سقطت همتهم ونامت عزائمهم وماتت خواطرهم وقام شيء واحد فيهم هو شهواتهم » .

وأما رأي السيد في إصلاح حال المسلمين فقد وضحه فيما يلي في حديث بينه وبين الشيخ عبد القادر المغربي عضو المجمع اللغوي المصري فيما أعلم :

« إذا لم يبن تقدمنا على قواعد ديننا وقرآننا فلا خير لنا فيه ، ولا يمكن أن نتخلص من ربقة الانحطاط والتأخر . فقال محدثه : إذا نظرنا إلى حالتنا منذ ثلاثين سنة وقابلناها بما نحن عليه الآن نرى بونا عظيما ، فقال السيد : ما تراه الآن من حالتنا المستحسنة ظاهرا هو عين التقهقر والانحطاط لأننا في تقدمنا هذا مقلدون للأمم الأوربية : وبسبب ذلك يخشى علينا بعد زمن غير طويل أن نختم للذل وللسلطة الأجنبية أو تتبدل صبغة الدين الإسلامي الذي من شأنه رفع راية السلطة والتغلب إلى صبغة خمول وذل بعض الشعوب القديمة . فقلت : ما الطريقة القويمة التي ينبغي أن نسلكها لنتوصل للتمدن الحقيقي ومساواة شعوب أوربا ؟ فقال : لابد من حركة دينية ولأننا إذا نظرنا في سبب انقلاب حالة عالم أوربا من الخشونة إلى

المدنية نراه الحركة الدينية . قلت إن دينهم فاسد فأصلحوه ودينا بحمد الله تعالى للآن محفوظ من التبديل والتغيير ، فكيف تكون حركتنا الدينية ؟ وعلى أى شيء مبناها ؟ فقال : حركتنا الدينية هى اهتمامنا بقلع ما رسخ فى عقول العوام والخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيق مثل جلهم القضاء والقدر على معنى يوجب ألا يتحركوا لطلب جد ولا لتخلص من ذل ، ومثل فهمهم لبعض الأحاديث الشريفة الدالة على فساد آخر الزمان الذى جلهم على عدم السعى وراء الأصلاح والنجاح . . . فلا بد من بث العقائد الدينية الحقة بين الجمهور وشرحها لهم على وجهها المناسب . ولا بد أيضا من تهذيب علومنا وتنقيحها وتأليف كتب فيها قريبة المأخذ ، لتستعين بها على تقدمنا لا أن نجعلوا علما مقصودا لذاته كعلم النحو والبلاغة ، يصرف الانسان جل حياته فى الاشتغال فيها ولا يقدر على إنشاء مقالة يعبر بها عما يقوم فى نفسه من الأفكار والأمور التى يرجع إليها فى إصلاح الوطن وتعزيز الدين وتقوية الأمة . » .

أما النهوض العلمى والأدبى الذى تحدث فيه السيد فهو ما أخذت به مصر وما تزال تغير وتبدل وتنشىء وتبدع بتأليف الكتب وتعد البرامج وتشجع أهل العلم والأدب إلى يوم الناس ، هذا — وأما سياسته الأسلامية المركزية فقد انصرفت الشعوب الاسلامية عنها اليوم انصرافا أنا أعده خضوعا للأمر الواقع كما يقولون . فما زال الاستعمار يوجس خيفة من الأمبراطورية التركية التى كانت قلب الأسلام النابض يقص أجنحتها ويزلزل أركانها ويرث أرضها وديارها ، وكان وزراؤها إلا قليلا أعوانه وصنائعه يحاربونها تارة بالاستخذاء والجهل أخرى ، حتى صار بأسهم بينهم شديدا تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى وانفصل ذلك القلب عن الجسم ، وأصبحت تركيا دولة لا أدرى أين أضعها من العالم الأسلامى وهى تبرأ منه وتفر فرار السليم من الأجرب وإلى الله عاقبة المصير . وأنا أريد أن أحصر بحثى فى مناقشة سياسة الأستاذ جمال الدين — طيب الله ثراه — أقول : وجدت بطبيعة الحال بعد تقليع أوصال دولة السلاطين ، الأوطان السياسية ، وصار لزاما لكل أمة أن تفكر فى كيانها وحاضرها ومستقبلها وتعمل على إنهاض نفسها ، وقويت الجنسيات الوطنية وتمكنت الحكمة القائلة (ما حك جلدك غير ظفرك فتول أنت جميع أمرك) وكذلك تفعل مصر والحجاز والعراق واليمن وبلاد الشام الآن . ومتى قويت الأوطان المحلية وحفظ الله على المسلمين دينهم أن تلعب به أيدى الزيغ والفساد ، فعندئذ يلتئم شمل المسلمين فى أقطار الأرض ويعود إلى الدين مجده ، فما كان يريد جمال الدين أن يحصل أولا سيحصل آخرا سواء لدينا أتعاضدنا أو لا تم سمعنا النهوض أم نهض كل قطر بحيث يصير قوة مسيطرة على شؤونه المدنية والسياسية وبعيد ذلك لا تحتاج وحدة المسلمين إلى عمل ومجهود ، فهى كالماء إذا جزر مد

وكالسيف لا يغير الصدأ من جوهره فاذا شحذ قطع وكما قال برناردشو الفيلسوف الانجليزى العجيب (المستقبل الاسلام)

ولنعد إلى حال السيد بعد نفيه من مصر، فقد ألزمته الحكومة البريطانية بالبقاء فى الهند، وهناك كتب رسالته فى الرد على الدهريين ، حتى انقضت الثورة العرابية وكأنها ظنت إن جمال الدين قد تهرب من الهند ليؤجج لهيب الثورة، فأرصدت عليه عيونها ونقلته من حيدر آباد إلى كلكتا حتى أخفقت الثورة واحتل الانجليز مصر ، فسمحوا له بالسفر حيث شاء فاختار السفر إلى أوربا سنة ١٨٨٣ فذهب إلى لندن فباريس ، وكان تلميذه الشيخ عبده منفيا فى بيروت عقب الثورة فاستدعاه إليها وهناك أصدر مجلة (العروة الوثقى) باسم الجمعية التى تألفت لدعوة المسلمين إلى الاتحاد والنهوض بمحاربة الاستعمار وتحرير مصر والسودان من الاحتلال الانجليزى، وكانت هذه الجمعية سرية تحوى عظماء العالم الاسلامى وعهدت إلى السيد فى إصدارها فى بلد الحرية (باريس)

أما شرح مقاصد هذه المجلة وأثر كل من الشيخ جمال الدين والاستاذ محمد عبده فيها فموعدنا بذلك العدد الآتى إن شاء الله ؟

حسنين حسن مخلوف

المدرس بالمعلمين بطنطا

هل اقتنيت نسخة من كتاب ...

صحائف مطوية

من تاريخ النبوة

تأليف

محمد كامل حسين

دراسة وافية للحلقة المفقودة فى تاريخ وادى النيل ، وخلاصة أبحاث المؤلف مدى أربعة أعوام قضاها فى مراجعة المصادر التاريخية المختلفة وزيارة الآثار القديمة فى تلك البلاد . .

١٠٠ صفحة .... ١٥ صورة .... ٣ قروش ....

يرسل الثمن طوابع بريد باسم المؤلف بأدارة المجلة . والمؤلف أيضا كتاب « محمد رسول الله » ١٥ مليما - وكتاب « صور من الأدب الدينى » ١٠ مليمات خالص البريد ، ويطلبان من إدارة المجلة .